فلسطينيّو 48

وحرب الإبادة على غـــزّة

مساءلة الصمت والفاعليّة السياسيّة

تحريـــر:
همّت زعـبي وعرين هـوّاري

مدى الكرمل
المـركـز العـربـي للـدراسـات الاجتماعية التطبيقية

المحتويات

المقدّمة **5**

همّت زعبي وعرين هوّاري

الباب الأول: مداخلات افتتاحية **13**

الحرب على غزّة... إبادة للإنسان والمكان 15

إلهام شمالي

فلسطينيّو 48 والحرب؛ المكان والمكانة 21

مهنّد مصطفى

الباب الثاني: مقـالات **25**

مواقف المجتمع العربيّ تجاه الحرب على غزّة وإسقاطاتها السياسيّة: تحليل استطلاع رأي عامّ- مدى الكرمل 27

امطانس شحادة

قصّة "كوخ العم توم" والداخل الفلسطينيّ 51

حبيب مخّول

بين قبضة الملاحَقة ومحدوديّة الفاعليّة: الطلبة فلسطـينيّـو الـ 48 في الجامعات الإسرائيليّة في أعقاب حرب الإبادة على قِطاع غزّة 73

يوسف طه

الباب الثالث : دراسـات **97**

فلسطينيّو الـ 48 وصفقة التبادل بعد السابع من أكتوبر 2023: بين مواطَنة العدوّ والمواطَنة العارية 99

محمّد عوّاد

الالتحام والانفصال في علاقة الداخل مع لحظة غزّة: عن أيّ تَوقٍ وعن أيّ طَوقٍ نكشف؟ **135**
حنين زعبي

مَفْـهَمَة الإبادة الجماعيّة في غزّة- تحليل نصوص مجلّة "فسحة ثقافيّة فلسطينيّة" منذ السابع من أكتوبر 2023 **175**
جاد قعدان

أصوات مكتومة وفضاءات معسكرة: الأطباء الفلسطينيون في المستشفيات الإسرائيليّة بعد السابع من أكتوبر **213**
غادة مجادلة

المساهِمون في الكتاب **253**

قصّة "كوخ العم توم" والداخل الفلسطينيّ

حبيب مخّول

ملخَّص

في السابع من أكتوبر 2023، مع انطلاق عمليّة "طوفان الأقصى" وما تبعها من حرب إبادة إسرائيليّة في قِطاع غزّة، ساد صمت شبه تامّ في الداخل الفلسطينيّ (أراضي عام 1948). هذا الصمت بدا مُفارِقًا على نحوٍ لافت للانفجار الشعبيّ الذي شهده الفلسطينيّون في الداخل خلال هبّة الكرامة في أيّار 2021،[1] حين خرجوا إلى الشوارع رفضًا لمحاولات التهجير في حيّ الشيخ جرّاح وعدوان الاحتلال على القدس وغزّة. المفارقة الزمنيّة والسياقيّة هذه تطرح سؤالًا سياسيًّا-اجتماعيًّا مركزيًّا: لماذا امتنع جزء كبير من فلسطينيّي الداخل عن الاحتجاج أو حتّى التعبير العلنيّ عن التضامن مع غزّة في ذروة الإبادة الجماعيّة؟

هذا السؤال، الذي أُشبِع تحليلًا في المقالات الصحفيّة، يحظى بتفسيرات شتّى: من الخوف والقمع، إلى الانكفاء السياسيّ، إلى الرغبة في الحفاظ على فُتات الامتيازات الذي تمنحه دولة إسرائيل. لكن هذه الورقة تقترح قراءة إضافيّة تُسلِّط فيها الضوء على البنْية الاستعماريّة الاجتماعيّة–النفسيّة التي تُنتِج هذا الصمت وتعيد إنتاجه. اعتمادًا على مقاربة مالكوم إكس حول "عبد المنزل وعبد الحقل"، ومن خلال تحليل الاستعمار الاستيطانيّ بوصفه بنْية عنصريّة تُفرِّق بين السكّان الأصليّين داخل الحيّز الجغرافيّ الواحد وَفقًا للحسابات الاستعماريّة، تدّعي هذه الورقة أنّ إسرائيل تتّبع سياسة فرز واستيعاب مُمَأْسَسة تُنتِج ما يسمّى "فلسطينيّ المنزل وفلسطينيّ الحقل".

1. هبّة الكرامة: اندلعت في أيّار 2021، الموافق لشهر رمضان، خلال الاحتجاجات الفلسطينيّة ضدّ محاولات التهجير في حيّ الشيخ جرّاح بالقدس. تخلَّلَ الهبّةَ مهاجمةُ مستوطنين للفلسطينيّين في "المدن المختلطة"، ومحاولاتُ اقتحام للمسجد الأقصى المبارك، واعتداءاتٌ عنيفة من قِبل الشرطة وقوّات الأمن، وعدوانٌ على غزّة. للاستزادة، بالإمكان مراجعة: (عنبتاوي، 2024).

تسعى هذه الورقة إلى تقديم معالَجة نظريّة مفاهيميّة؛ فهي لا تستند إلى تجميع معطَيات ميدانيّة، بل تحاول تحليل الواقع الذي تبحثه استنادًا إلى النظريّات التي تعالج البنْية الاستعماريّة الاجتماعيّة النفسيّة كما يراها روس وفانون (Ross, 1982 & Fanon, 2008) كإطار نظريّ عامّ، ومن خلال اعتماد التعبير الاستعاريّ "عبيد المنزل وعبيد الحقل" لمالكوم إكس بوصفها عدسة تحليليّة تساعد في فَهْم اختلاف ردود الأفعال لدى فلسطينيّي الـ48 بعد السابع من أكتوبر 2023 مقارَنةً بهبّة عام 2021 ودون أن تدّعي التطابق إطلاقًا. تستخدم هذه الورقة الموادّ الصحفيّة واستطلاعات الرأي بوصفها شواهد لتوضيح قابليّة الإطار للتطبيق وتقدُّم ثنائيّة فلسطينيّ المنزل/ فلسطينيّ الحقل كـمتغيّرات تحليليّة احتماليّة مشروطة بسياقات وخلال لحظات بعينها، لا كتصنيفات هُويّاتيّة أو أحكام أخلاقيّة. لا تدّعي الورقة أنّ هذه المقارَبة تنطبق في جميع الأوضاع، بل تحاجج أنّ هذه المقارَبة تحتاج إلى شروط محدَّدة ليكون الإطار المفاهيميّ المقترَح ملائمًا. الشرط الأوّل هو وجود تفاوت بنيويّ في معاملة إسرائيل للفلسطينيّين داخل نفس الحيّز الجغرافيّ؛ أي إنّ الفلسطينيّين داخل مناطق الـ48 (لاحقًا: فلسطينيّو/ فلسطينيّي الـ48)، في الحدث العينيّ والظرف السياسيّ قيد البحث، يعامَلون بطريقة مختلفة عن الفلسطينيّين في المناطق المحتلّة عام 1967. الشرط الثاني هو شدّة التهديد الذي تتعرّض له الدولة الاستعماريّة؛ ففي لحظات تدرك فيها إسرائيل أنّ وجودها مهدَّد (مثلما في 2023/10/7)، يزداد تمسّك بعض فلسطينيّي الداخل بما تبقّى لديهم من فُتات المواطَنة، ويفضّلون الصمت خوفًا من الخسارة. أمّا في لحظات هي أقلّ تهديدًا (مثلما في أحداث الشيخ جرّاح وهبّة الكرامة عام 2021)، فقد يكون المجال أوسع للاحتجاج والمشارَكة. تكثيف هذه الشروط يعيد تشكيل "قيمة" المواطَنة إدراكيًّا ويدفع نحو أنماط كُمون/ صمت- وهي سلوكيّات تقترح الورقة أن تكون موضوعًا لأبحاث ميدانيّة في المستقبل.

المقدّمة

"مش عاجبك؟ لكان روح عغزّة!"

"مين هادا؟ هادا ضفّاوي!"

أمثال هاتَيْن العبارتَيْن هي التي دفعتني لكتابة هذه الورقة؛ وكنت قد بدأت أسمعها منذ الصغر،[2] لكنّني لم أفهمها قَطّ. تحمل هذه العبارات استعلاءً وتهديدًا، وفي ذات الوقت تفترض أنّ وضع الفلسطينيّ في الداخل أفضل وأحسن بكثير من أوضاع الفلسطينيّين في الضفّة وغزّة، وأنّ تغيُّر أوضاع فلسطينيّي الداخل قد يكون في اتّجاه واحد فقط، إلى التدهور، إذ لا يمكن له أن يتحسّن. وإن حمل أيّ تغيير، فهو بالضرورة نحو الأسوأ. ولذا عليه أن يرضى بالقليل من الحظّ الذي "أنعمت به" عليه إسرائيل؛ إذ إنّ الأوضاع التي يعيشها فلسطينيّو الـ48 (مَهْما كانت مجحفة) تظلّ مشروطة بقبولهم للأمر الواقع، وإلّا فإنّها قد تتدهور وتدفع بهم إلى ما هو أسوأ. أتساءل: لماذا؟ لماذا كانت هذه هي المقارنة؟ لماذا يرضى فلسطينيّو الـ48 بهذا الخيار؟

لِـمَ يجلس فلسطينيّو الـ48 ساكتين، وغزّة تعيش لحظة إبادة؟ لِـمَ يجلسون وكأنّهم متفرّجون على مسرح التاريخ؟ لهذا السؤال أجوبة كثيرة. الخوف، والرعب، والقلق، وعجز القيادة، وتفكيك الوحدة، وعدم الرغبة في خسارة امتيازات مدنيّة توفّرها له المواطَنة، كلّها إجابات ممكنة وقد تكون محقّة ولها وزنها. لكن في المقالة سوف أقترح مبنًى تحليليًّا يوضّح جانبًا إضافيًّا لهذه الظاهرة. هذا المبنى يرى في معاملة إسرائيل المختلفة للفلسطينيّين في طرفَيِ الخطّ الأخضر ومن ضمنها المواطَنة، كأحد العوامل التي قد تؤثّر على صمت الكثيرين من فلسطينيّي الـ48 تجاه ما تقوم به إسرائيل في غزّة.

في البداية ترصد الورقة بعض الإجابات التي طُرِحت في الصحافة لسؤالنا أعلاه، ومن ثَمّ تتناول الأدبيّات ذات المنظور النقديّ والمناهض للاستعمار التي تعالج تعامل الاستعمار مع السكّان الأصليّين ومن ضمنها الأدبيّات التي انشغلت بسلوك الواقعين تحت الاستعمار بعامّة، والفلسطينيّين على وجه الخصوص.

2. الباحث فلسطينيّ من مناطق الـ48.

عند الخوض في التفرقة والعنصريّة الاستعماريّة الإسرائيليّة، ستقوم الورقة بتحليل الفلسطينيّ من منظور علم النفس الاجتماعيّ، عبر تطبيق مفهوم "عبيد المنزل" مقابل "عبيد الحقل"، على نحوٍ ما جاءت في تحليل مالكوم إكس لرواية "كوخ العمّ توم"، على الحالة الفلسطينيّة. بغيةَ المقارنة، تقوم الورقة بمراجعة سلوك فلسطينيّي الـ48 في "هبّة الكرامة" في محاولة لفَهْم الفارق الشاسع بين ردّة فعلهم في الحرب الحاليّة مقابل ردّة فعلهم خلال هبّة الكرامة.

ستقوم الورقة بمحاولة فَهْم سيكولوجيّةِ مَن أسمّيه "الفلسطينيّ المتوسّط"[3] داخل مناطق الـ48، مستعينًا ببعض الإحصاءات لتكون دليلًا على هذه القراءة. في النهاية، تدّعي الورقة أنّ الفروق الموهومة بين الفلسطينيّين على شقَّيِ الخطّ الأخضر ليست كبيرة كما يحاول المستعمِر أن يقنعنا. وتحاول الورقة الاستثمار في المبنى المطروح محاوِلةً فتح النقاش لتحدّي هذه البنى وما تنتجه للإسهام في إنتاج فاعليّة فلسطينيّة تحاول التحرُّر من هذا الاستعمار.

تسعى هذه المقالة إلى الإسهام في قراءة حقل دراسة العنصريّة الاستعماريّة، وعلى وجه التحديد في الحالات التي تُنتِج فيها البنْيةُ الاستعماريّة تراتُبيّاتٍ داخل نفس البنْية كما في الحالة الفلسطينيّة ذات الجغرافيّات السياسيّة المختلفة.

لماذا هنالك هدوء في "الجبهة الداخليّة"؟

مباشرة بعد السابع من أكتوبر 2023، تصاعد خطاب التخويف الإسرائيليّ تجاه فلسطينيّي الـ48؛ فقد تحدّث نتنياهو منذ اليوم الأوّل عن "الجبهة الرابعة"، معتبرًا أنّ فلسطينيّي الـ48 جزء من الحرب إلى جانب الجنوب والضفّة والشمال (شحادة، 2024). بِنْ چڤـير لوّح بعودة "حارس الأسوار 2"، في إشارة منه إلى هبّة الكرامة في أيّار 2021، فيما حذّر نير بركات (وزير الاقتصاد الإسرائيليّ) من قيام فلسطينيّي الـ48 بالهجوم على مدن يهوديّة، ولذا شجّع على تسليح فِرَق الحراسة. فوَفقًا لبركات، إذا تحرّك 1% فقط من فلسطينيّي الداخل وتسلّحوا، فمعنى ذلك وجود أكثر من 20 ألف مقاتل في قلب إسرائيل (أرلوزوروڤ، 2023). لكن هذه المخاوف لم تتحقّق. على العكس من ذلك، بدا الداخل الفلسطينيّ هادئًا جدًّا، الأمر الذي شغل الصحافة الإسرائيليّة وأثار موجة تفسيرات متباينة.

3. المقصود هو الفلسطينيّ غير المسيّس، يقطن في بلدة/ مدينة ذات غالبيّة فلسطينيّة في أراضي الـ48، ولغته الأمّ هي العربيّة.

عيران زِنْــچِـر (2023) رأى أنّ هذا الهدوء يعكس خوف الفلسطينيّين من حدوث نكبة ثانية، بالتوازي مع خوف اليهود من حدوث محرقة ثانية. وعَزَا ذلك إلى عنف الشرطة منذ الأيّام الأولى، وإلى معرفة الفلسطينيّين باللغة العبريّة ومتابعتهم الإعلام العبريّ، الأمر الذي جعلهم "شهودًا" على أفعال مقاتلي حماس عوضًا عن أن ينجرّوا وراء خطابها. سامي سموحا ذهب في الاتّجاه نفسه، معتبرًا أنّ فلسطينيّي الـ48 يخشَوْن خسارة الخدمات الاقتصاديّة والاجتماعيّة، وأنّ شبح نكبة جديدة يظلّ ماثلًا أمامهم. في مقابل هذه القراءات الأمنيّة، ظهرت أصوات تركّز على دَوْر القيادة العربيّة في ضبط الشارع. فقد صرّح أمير بشارات، مدير اللجنة القطْريّة لرؤساء السلطات المحلّيّة العربيّة، أنّ قتل مواطنين فلسطينيّين على أيدي مقاتلي حماس جعله يشعر بـِ "شراكة قَدَر"، وأنّ هذا القرب العاطفيّ من الإسرائيليّين استُثمِر سياسيًّا في إقامة مقرّ طوارئ مشترَك مع الحكومة الإسرائيليّة (كَلْكَلِسْت، 2023). وأكّدت هنادي بصول (مديرة مركز عربيّ- يهوديّ في اللدّ) أنّ القيادة الكلاسيكيّة أمسكت هذه المرّة بزمام المبادرة، خلافًا لِما حصل عام 2021 حين جاءت القيادة من الشارع، وأنّ الهدف الأساسيّ كان احتواء الوضع وتعزيز الاستقرار (أبو لبن، 2024). إلى جانب ذلك، اعتبرت الصحفيّة الإسرائيليّة أرلوزوروف (2023) أنّ بعض أسباب الصمت مَرَدُّها إلى فقدان حماس لشرعيّتها، وتزايد تقبُّل الفلسطينيّين في الداخل لفكرة أنّ إسرائيل باقية ولن تزول.

أمّا في الصِّحافة الفلسطينيّة، فقد برزت أصوات أقلّ وصفيّة وأكثر نقديّة. حنين زعبي (2024أ) رأت أنّ الصمت ليس تعبيرًا عن "مسؤوليّة" بل هو انعكاس للخوف من الساديّة الإسرائيليّة ومن العقاب الجماعيّ، وأنّ القيادة في الداخل تسعى إلى فكّ الارتباط مع غزّة لتجنُّب دفع ثمن الانتماء (زعبي، 2024ب). علي مواسي (2024) قدّم تحليلًا بنيويًّا، عازيًا الكُمون إلى عسكَرَة الحياة، وضعف المؤسَّسات السياسيّة والمدنيّة، وتفشّي الجريمة المنظَّمة، وغياب المشروع السياسيّ، وسياسات العصا والجزرة. خالد عنبتاوي (2024) ركّز من جهته على فشل القيادة وانعدام المشروع التحرُّريّ، معتبرًا أنّ هذا الفراغ هو ما يفسّر الاستكانة الحاليّة مقارَنةً بالتحرُّك الواسع في هبّة الكرامة.

من خلال هذا الاستعراض، يبدو أنّ تفسيرات الصمت في الداخل الفلسطينيّ بعد السابع من أكتوبر 2023 تراوحت بين الخوف من القمع والتهديد الأمنيّ، وضبط القيادة للشارع، ومحاولات التضامن مع الإسرائيليّين أو الاندماج في مؤسَّسات

الدولة، إضافة إلى العوامل البنيويّة المتعلّقة بضعف التنظيم وغياب المشروع السياسيّ. في حين أنّ لجميع التفسيرات التي ذُكِرت سابقًا دَوْرًا في تفسير هذه الظاهرة، أودّ في هذه المقالة طرح رؤية مختلفة قد تسهم في إضافة تفسيرات لهذا الصمت. تقترح هذه الورقة مقاربة بديلة تنظر إلى الصمت على أنّه نتاج لبنْية استعماريّة-عنصريّة تُنتِج تراتُبيّات داخليّة، وهو ما سأحلّله لاحقًا عبْر التعبير الاستعاريّ "فلسطينيّ المنزل/ فلسطينيّ الحقل".

العنصريّة والاستعمار

العنصريّة كانت وما زالت جزءًا لا يتجزّأ من الاستعمار. روبرت روس في مقدّمة كتابه يتطرّق إلى علاقة العنصريّة بالاستعمار، لافتًا أنّها ليست أحاديّة الاتّجاه (Ross, 1982) . يرى روس أنّ العنصريّة -خاصّةً في أوروبا- تطوّرت مع توسُّع رقعة الاستعمار واستغلال الأوروبـيّين لموارد الشعوب الأخرى، وأنّها (العنصريّة) استُخدِمت كأداة وذريعة لشَرْعَنة الاستعمار، وأنّ الاستعمار اعتمد على "فوقيّة" العِرْق المستعمِر كآليّة مُهِمّة للحفاظ على الاستعمار. من ناحية أخرى، يرى روس أنّه لا يكفي الحديث عن الفوقيّة، كوسيلة لشَرْعنة الرغبة في الربح فقط، بل يضيف قائلًا إنّها في الوقت ذاته دافعٌ للاستعمار ونتيجة تولّدت منه. يؤكّد روس أيضًا أنّ الكثير من الشعوب المستعمَرة تبنّتْ -نتيجةً للاستعمار- عنصريّةَ المستعمِر نحوها، وكثيرًا من التقسيمات والأفكار التي أتى بها (من ذلك -على سبيل المثال- تقسيم الناس إلى "قبائل" في أفريقيا أو تقسيم سكّان الهند إلى "طبقات") (Ross, 1982, P. 3).

وفي السياق ذاته، يطرح جوليان چـو في بحثه إطارًا مهمًّا لتحليل العنصريّة، ويصنّفها على أنّها ظاهرة اجتماعيّة بنيويّة داخل الاستعمار في القرن العشرين (Go, 2004)، ويرى أنّ الاستعمار حرَمَ الشعوبَ المستعمَرة الحقوقَ السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة متذرّعًا بكونها "منحطّة عِرْقيًّا". لم يكتفِ چـو بهذا التصنيف العامّ بشأن مبنى الاستعمار والعنصريّة، بل أضاف أنّ عنصريّة الاستعمار ليست واحدة، أي إنّ لها تشكُّلات مختلفة في سياقات تاريخيّة وجغرافيّة مختلفة: عنصريّة القرن السابع عشر مقابل عنصريّة القرن التاسع عشر، أو عنصريّة إمبراطوريّة كولونياليّة معيَّنة مقابل أخرى، مدّعيًا أنّه ليس ثمّة دافع واحد للعنصريّة، وهو ما تتولَّدُ عنه فروقٌ في ممارساتها. فقد وجد في بحثه بشأن

تعامُل أمريكا مع مستعمَريها سكّان المحيط الهادئ في چوام (Guam) ما هو مختلِف عن تعاملها الخاصّ بمستعمَريها في سامْوَا الأمريكيّة (American Samoa) والفلپـين؛ وكلّها مناطق استعمرتها أمريكا في فترة العامَيْن 1888 و1889. فبينما قام الأمريكيّون بالنظر إلى الفلپـينيّين باحتقار ورغبوا بتحويلهم إلى أمريكيّين، نظرت مؤسَّسات الحكم الاستعماريّ إلى سكّان الجزيرتَيْن چوام وسامْوَا بإعجابٍ ما؛ ولذا كان هدف الحكم الأمريكيّ في هاتَيْن الجزيرتَيْن هو المحافَظة قَدْر الإمكان على الوضع القائم لديهما.

وكما أنّ الاستعمار يمارس تمايزًا في سياساته البنيويّة، فإنّه يترك أثرًا نفسيًّا عميقًا على المستعمَرين. هنا تتقاطع البنْية المادّيّة مع البنْية النفسيّة-الثقافيّة، لتنعكس أحيانًا في استبطان المستعمَر لدونيّته مقابل المستعمِر. وَفقًا لفرييري، المستعمَر سينظر إلى المستعمِر على أنّه العالِمُ وذو المعرفة، وسيفترض جهلَهُ هو، أي إنّه بذلك يتقبّل فوقيّة المستعمِر المعرفيّة (Friere, 2005)، وهو ما تؤكّده كذلك ليلى أبو لغد بادّعائها أنّ التصوُّرات الحداثيّة للعائلة والنساء التي هَيْمَنَتْ في دول الشرق الأوسط التي خضعت للاستعمار، هذه التصوُّرات استبطنت خطابات الاستعمار بشأنها فأخضعت القِيَم الثقافيّة والدينيّة في المجتمعات الإسلاميّة لاختبار الحداثة، بوصفه المعيار الوحيد لتحديد شرعيّة هذه القِيَم وطبيعتها (خنفير، 2024). يظهر هذا الأثر النفسيّ على نحوٍ واضح في التعبير الاستعاريّ "العمّ توم" التي تكشف عن آليّات استدخال القمع والبحث عن البقاء عبْر التشبُّه بالسيّد.

يسهم هذا التشكُّل البنيويّ للعنصريّة الاستعماريّة في خلق وعيٍ مشوَّهٍ للموقع والهُويّة والانتماء لدى المستعمَر، حيث يتطرّق الكثير من المنظّرين الأكاديميّين إلى العلاقة النفسيّة بين المضطهِد والمضطهَد؛ إذ من هول الاضطهاد نرى المضطهَد يحاول أن يتقرّب من مضطهِده وأن يقلّده، وإن كان ذلك باضطهادِ مَن هم مثله (Friere, 2005). يدّعي فانون أنّ سيطرة المستعمِر على السكّان الأصليّين ليست سياسيّة أو اقتصاديّة أو عسكـرية فحسـب، بل هي نفسيّة كذلك (Berger and Jabr, 2021)(Fanon, 2008) ؛ أي إنّ استعباد الأشخاص لم يكن جسديًّا فحسْب، بل إنّ الأمر تجاوز ذلك إلى استعباد تاريخهم وكرامتهم ووكالتهم أي نفوسهم. استنادًا إلى فانون، الاستعمار يشنّ معركة يوميّة على وعيِ مَن يستعمرهم، وذلك إمّا عن طريق الإقناع، وإمّا بالتأثير على الرأي العامّ، أو

البيروقراطيّة والدعاية (Berger and Jabr, 2021). على سبيل المثال، يتحدّث فانون عن توق الرجل الأسود أن يتحوّل فجأة إلى رجل أبيض، ذلك التحوُّل الذي لا يحظى باعتراف إلّا من خلال العلاقة مع امرأة بيضاء البشرة (Fanon, 2008, P. 45). وتدّعي ليلى أحمد (Ahmed, 2011) أنّ التفوُّق الأوروبـيّ يشكّل افتراضًا أساسيًّا ونقطة انطلاق في نصوص بعض المفكّرين العرب الذي يرَوْن في الغرب نموذجًا يُحتذى به، مضيفة أنّ جذور الشعور بالدونيّة والعجز أمام الغرب نمت مع غزو ناپـليون لمصر (1798– 1801) وعجز الإمبراطوريّة العثمانيّة عن هزيمته.

استنادًا إلى هذا، يصبح من المفيد اللجوء إلى قصّة "كوخ العم توم" أداةً تحليليّةً لفَهْم بنْية الاستعمار الإسرائيليّ الاجتماعيّة وأثرها على سلوكيّات وفَهْم الفلسطينيّين في الداخل.

قصّة "كوخ العم توم"

كُتِبت رواية "كوخ العمّ توم" في فترة كانت فيها العبوديّة في الولايات المتّحدة الأميركيّة لا زالت قانونيّة. كتبتها هارييت بِيتْشِرْ سْتُو ونُشِرت عام 1852، (Beecher Stowe, 2024, P. V). الشخصيّة المركزيّة في القصّة هي العمّ توم، وهو عبد منزل في بيت سيّده. عندما حاول عدد من العبيد الذين يعملون في المزرعة الهرب، عرضوا ذلك على توم أيضًا. سبب توجُّههم لتوم أنّه ضحيّة مثلهم؛ إذ إنّ سيّده سيبيعه ويسلخه عن امرأته وأولاده (Beecher Stowe, 2024, P. 50). بَيْدَ أنّ توم رفض الهرب. وكان مصيره أن يعيش في العبوديّة إلى أن مات على يدَيْ سيّد طاغٍ (Beecher Stowe, 2024, Pp. 522- 523).

يُستخدم التعبير "العمّ توم" إهانةً لمن هو ذو أصول أفريقيّة ويخضع لأناس بِيض أو متواطئ مع الاضطهاد الذي يمارسونه، أو إهانةً لأيّ مستعمَر يذوت دونيّته ويتماهى مع المستعمِر (Meriam-Webster, [n.d]).

عبد المنزل وعبد الحقل

تناول مالكوم إكس التعبير "العمّ توم" في خطاب شهير له في جامعة ميشيـچان عام 1963، يقول فيه إنّ هنالك نوعين من العبيد: "عبد الحقل وعبد المنزل". العمّ توم هو مثال لعبد المنزل، الذي يعيش في منزل سيّده (في القبو أو في العلّيّة)

ويعيش على ما يتكرّم به عليه سيّده، يرتدي ثيابًا تنازَلَ عنها سيّده، ويأكل بواقي الطعام من مائدته. يضيف إكس أنّ عبد المنزل يَعْرف سيّده كما يَعْرف نفسه، ويشارك سيّده بألمه ووجعه ومرضه. ويدّعي مالكوم إكس أنّه عند احتراق منزل السيّد يعمل عبد المنزل على إطفاء المنزل أكثر ممّا يعمل سيّده (X, 1963). يتابع خطابه قائلًا: عندما يحثّ أحدهم عبد المنزل على الهروب من سيّده، يرفض العبد بقوله: أهرب إلى أين؟ ماذا أستطيع أن أفعل من دون السيّد؟

في كتاب فانون "بشرات سوداء، أقنعة بيضاء" (Fanon, 2008)، يجادل بأنّ الرجل الأسود يطمح إلى أن يصبح أبيض، ويقدّم اللغة بوصفها مثالًا أساسيًّا على ذلك. فاللغة بالنسبة للمستعمَر وسيلة لإثبات انتمائه للمستعمِر؛ كلّما أتقنها ازداد قربه منه. تنبع قوّة اللغة هنا من عقدة النقص الناتجة عن تدمير الثقافة الأصليّة، بحيث تصبح لغة المستعمِر مفتاحًا للترقّي الاجتماعيّ والاقتصاديّ. يوضّح فانون أنّ الضبّاط المحلّيّين الذين خدموا في جيوش الاستعمار استُخدِموا أساسًا كـَ "مترجِمين" للمستعمِر، وأنّ التمييز بين الشعوب المستعمَرة كان يقاس أحيانًا بطريقة لفظهم للّغة الأجنبيّة. بِذا تصبح اللغة أداة لخلق هرميّة جديدة: من يتقن لغة المستعمِر يُعتبَر "أكثر تحضُّرًا" ويحظى بفرص أفضل للنجاح.

من العمّ توم إلى فلسطين: بناء الإطار المفاهيميّ

يدّعي فوكو أنّه كي ينتمي عبد المنزل إلى مجتمع سيّده عليه الانسلاخ أو الانقطاع عن تاريخه وإرثه (Foucault, 1988). ويضيف فوكو أنّ الإنسان يفعل ذلك كي يتفادى التعامل والمقارنة مع السيّد؛ وذلك لأنّ جهل السيّد بالتجارب التي يمرّ بها شعبه تثير الجنون.

نجد هذه المفاهيم تنعكس كذلك في الأبحاث التي تعاملت مع هذه المواضيع في الحالة الفلسطينيّة. ففي بحث أَجْرتْه في العام 2018 لمى خوري[4] تقوم باستخدام التعبير "فلسطينيّ البيت" ("The House Palestinian") (Khouri, 2018) واصفةً به تجربتها الخاصّة كمهاجرة فلسطينيّة هاجرت من الأردن إلى الولايات المتّحدة الأمريكيّة. استفزّ انتخاب ترامـپ للمرّة الأولى في عام 2016 تساؤلات

4. معالجة ومحللة نفسية فلسطينية مقيمة في الولايات المتحدة الأمريكية، تحمل شهادة الدكتوراة في التحليل النفسي وتمارس التحليل النفسي العابر للحضارات.

خوري عن هُويّتها وتصرُّفها. هذه التساؤلات جعلت خوري تتأمّل في مفهوم "فلسطينيّ المنزل". تُعرِّف خوري "فلسطينيّ المنزل" من عدّة نواحٍ. أوّلًا، هو واعٍ لهُويّته وللنضال الفلسطينيّ القائم والاحتلال والقمع اليوميَّيْن اللذَيْن يواجههما من الاحتلال الإسرائيليّ، لكنّه يعلن أنْ ليس لديه أيّة ضغينة أو غضب تجاه سكّان الغرب من حوله (حيث يقطن في الشتات) (Khouri, 2018). ثانيًا، يتحوّل الفلسطينيّ، بحسب تجربتها، إلى فلسطينيّ المنزل عند تقبُّله العنصريّة ضدّ الفلسطينيّين. فهي من تجربتها الخاصّة حكمت على شعبها وأساءت فَهْمه وأقنعت نفسها بأنّها ليست جزءًا منه (Khouri, 2018). تقبُّلها فكرةَ أنّه لا يمكن للفلسطينيّ أن يحلم بالأمان وتقرير المصير ولذلك هي ليست جزءًا من شعبها جعلها تفهم أنّها أصبحت "فلسطينيّة منزل".

ترى خوري أنّ هذه الظاهرة تعكس صدمة مجتمعيّة؛ فهي إستراتيجيّة لخداع الذات في محاولة للبقاء. فواقع الاستعمار يولّد حزنًا وغضبًا شديدَيْن، لكن التعبير عنهما قد يدمّر الفرد، فيستبدلهما بكراهيَة الذات. هكذا يصبح "فلسطينيّ المنزل" أسيرَ ارتباك شعوريّ دائم، وتتحوّل هذه الحالة إلى جزء من حياته اليوميّة. وتضيف خوري أنّ قبول هذا الموقع هو في جوهره خدعة نفسيّة، إذ تتمزّق الهُويّة الأصليّة ويملأها حضور الهُويّة المستعمَرة (Khouri, 2018).

بحسب رأيها، تنتقل هذه الظاهرة للأجيال اللاحقة من خلال صمت الأهل وعدم تعبيرهم عن الحزن. وترى خوري أنّ نقل هذه الصدمة يكون عن طريق التصرُّفات لا الكلمات (Khouri, 2018). وعليه، وبحسب هذه المقاربة، يرى فلسطينيّ المنزل أنّه من المريح أن يقلّد سيّده في فكره ونهجه وأن يتظاهر بأنّه سالم داخليًّا. فكلّ محاولات عبد المنزل للبقاء تتلخّص بتفادي الغضب والجنون، لأنّه مميت. فإذا غضب وثار، فله عقاب محتَّم. لذا فغريزة البقاء تحتّم عليه تقبُّل هذه المعاملة من قِبل سيّده وعدم التعبير عن رأيه بها. فإذًا، الرغبة في تقليد السيّد هي أيضًا جزء من الاستعمار، استعمار الفكر والروح (Mcphail, 1981). الاستعمار هو من يزوّدنا بالصور التي يجب أن نرى بها نفسنا وغيرنا من خلالها (Butler, 2009). ومن هنا يبدأ فلسطينيّ المنزل بلبس قناعٍ مقلِّدًا مستعمِرَهُ (لغته وطرقه ومعتقداته) منفّذًا تعليماته. ليس بذلك فحسْب، بل كذلك من خلال كبح غضبه وحزنه، وبتسليم نفسه لخدمة سيّده. ويقوم فلسطينيّ المنزل بالقول لسيّده ما يرغب أن يسمعه (السيّد).

تنعكس شخصيّة "عبد المنزل" كذلك في علاقته مع "عبد الحقل"؛ إذ ينشغل الأوّل في استخدام معرفته وعلاقته مع السيّد لكبح عبد الحقل وقول ما يرغب السيّد في سماعه. هو يقول لعبد الحقل ما يطلبه سيّده ليرضى عنه ويكمل ويضمن بقاءه.

الحالة الفلسطينيّة

يشكّل المبنى التحليليّ الذي اقترحه جوليان چو حول العنصريّة الاستعماريّة المتغيّرة مدخلًا مهمًّا لفَهْم الحالة الفلسطينيّة والبنْية الاجتماعيّة للعنصريّة تحت الاستعمار الاستيطانيّ الصهيونيّ. وكما في حالة الاستعمار الأميركيّ لشعوب المحيط الهادئ، فإنّ إسرائيل داخل الجغرافيا الواحدة (فلسطين التاريخيّة)، وفي اللحظة الزمنيّة نفسها، تتعامل مع السكّان الأصلانيّين (الفلسطينيّين) وَفق منطقٍ تمايُزيّ لا يراهم جماعة قوميّة واحدة، بل يُعيد فرزهم بحسب الموقع الجغرافيّ والحسابات الاستعماريّة.

تتّضح ملامح هذا التفاوت البنيويّ بصورة خاصّة بعد عام 1967. فقد حصل فلسطينيّو الـ48 على الجنسيّة الإسرائيليّة منذ عام 1952، بما في ذلك حقّ التصويت والترشُّح للكنيست، كما رُفِعت القيود على حرّيّة حركتهم مع انتهاء الحكم العسكريّ في نهاية عام 1966 (صبّاغ، 1990، ص 33– 36).[5]

في المقابل، لم يُمنح فلسطينيّو الضفّة الغربيّة وقِطاع غزّة الجنسيّةَ الإسرائيليّة بعد الاحتلال، وظلّوا محرومين من الحقوق السياسيّة وحرّيّة الحركة. أمّا فلسطينيّو القدس، فمُنِحوا إقامة إسرائيليّة تخوّلهم الحصول على خدمات بلديّة وحقّ التصويت في انتخابات بلديّة القدس، لكنّهم ظلّوا ممنوعين من المشارَكة في

5. رغم حصول فلسطينيّي الـ48 على المواطَنة الإسرائيليّة، عرّف العديد من الباحثين تلك المواطَنة بأنّها ثانويّة أو عرَضيّة أو استعماريّة، وأشاروا أنّهم يعانون من قوانين ومن سياسات عنصريّة استعماريّة تصادر أرضهم وتخنق حيّزهم وتسيطر على شؤونهم الثقافيّة وتلاحق عملهم السياسيّ لا يتّسع هذا المقال للتعمُّق فيها. في هذا الصدد، انظر: (Bishara, 2017) (Rouhana & Sabbagh-Khoury, 2014). ورغم التفاوت الكبير في الأوضاع الاقتصاديّة والحالة المدنيّة لفلسطينيّي الـ48، بكونهم مواطنين في دولة إسرائيل، في عام 2023، قبل السابع من أكتوبر 2023، قُتِل 234 فلسطينيًّا في الضفّة على أيدي الجيش والمستوطنين (Doctors without borders, 2023)، بينما قُتِل في العام نفسه حتّى آخر شهر تشرين الأوّل في الداخل 213 الكثير منهم قُتِلوا بأيدي عصابات إجرام تنتشر في المجتمع في ظلّ تقاعس الشرطة الإسرائيليّة أمامهم (مركز أمان، 2023).

البرلمان. هذه الفوارق تشير إلى أنّ العنصريّة الاستعماريّة في الحالة الإسرائيليّة ليست مجرّد تفوُّق عِرْقيّ/ دينيّ ثابت، بل هي بنْية متغيّرة تتكيّف مع اعتبارات السيطرة وتوازنات المشروع الصهيونيّ.

يرتبط هذا التفاوت ارتباطًا وثيقًا بالهاجس المركزيّ للمشروع الصهيونيّ، وهو المعضلة الديمـچرافيّة. كما يبيّن إيلان پاپـه (التطهير العرْقيّ في فلسطين)، الصهيونيّة منذ القرن التاسع عشر اعتبرت وجود الفلسطينيّين العقبة الأكبر أمام تحقيق مشروعها (پـاپـه، 2007، ص. 278– 279). ويستشهد پـاپـه بقولٍ منسوب إلى داڤيد بن چـوريون مُفادُهُ أنّ وجود الفلسطينيّين في إسرائيل بنسبة 20% يمثّل مشكلة، وإذا بلغت نسبتهم 40% ستكون نهاية الدولة. ورغم أنّ الفلسطينيّين شكّلوا نحو 20% من السكّان عام 1949، حاولت إسرائيل تقليص هذه النسبة عبْر التهجير وهدم البيوت ومنع "المتسلّلين" من العودة (صبّاغ، 1990، ص 23– 24). لكن هذه السياسة فشلت؛ إذ يعترف بلموند، مستشار رئيس الحكومة للشؤون العربيّة ومنسّق أعمال الحكم العسكريّ، بأنّ آلاف الفلسطينيّين طُرِدوا، لكن عشرات الآلاف بقُوا وازداد عددهم باستمرار (صبّاغ، 1990، ص 27).

إزاء هذا الفشل، اعتمدت إسرائيل مقارَبة پراچماتيّة ابتغت استغلال بقاء الفلسطينيّين عوضًا عن التخلّص منهم. فقد جرى دمجُهم في سوق العمل كأيدٍ عاملة رخيصة (صبّاغ، 1990، ص 34)، والاعتمادُ على الزراعة الفلسطينيّة لتأمين احتياجاتها الغذائيّة (قعدان، 2025). في الوقت نفسه، وظّفت الدولة وجود الفلسطينيّين في الداخل كأداة دبلوماسيّة لإبراز صورة إسرائيل على أنّها "ديمقراطيّة تحترم حقوق الأقلّيّات"، ولإنكار وصفها بدولة فصل عنصريّ. بَيْدَ أنّ المعضلة الديمـچرافيّة عادت لتفرض نفسها بعد عام 1967: فلو منحت إسرائيل الجنسيّة للفلسطينيّين في الضفّة وغزّة كما فعلت مع فلسطينيّي الـ48، لفقدت أغلبيّتَها اليهوديّة. ومع تساوي أعداد الفلسطينيّين واليهود تقريبًا بحلول عام 2022، تحقَّقَ تحذيرُ بِنْ چوريون القديم. وللتعامل مع هذا الواقع، فرضت إسرائيل نظامَ فصل عنصريّ واحتلالًا مُوازيًا للتوسُّع الاستيطانيّ والتهجير.

بِذا يصبح الوجود الفلسطينيّ الفعليّ على الأرض تحدّيًا مستمرًّا للنظام الإسرائيليّ، واجهته الدولة عبْر خليط من الـپـراچـماتيّة الاقتصاديّة والديكور الديمقراطيّ، مستخدِمة درجات متفاوتة من التمييز العنصريّ تجاه الفلسطينيّين في فلسطين

التاريخيّة. وبِذا، لا تكون عنصريّة المشروع الصهيونيّ مجرّد خطاب شَرْعَنة للاستيطان، بل تَكُون جزءًا بنيويًّا من منظومة اجتماعيّة استعماريّة تُنتِج واقعًا مركّبًا ومتغيّرًا، وتعيد تشكيل نفسها باستمرار.

"فلسطينيّو المنزل" وَ"فلسطينيّو الحقل" في فلسطين التاريخيّة

على الرغم من أنّ خوري طوّرت مفهوم "فلسطينيّ المنزل" من تجربتها في الشتات، ومن خلال تحليلها الذاتيّ وتجارب مَن عالجتهم، فإنّ هذا المفهوم لا يقتصر على حالة الفلسطينيّ خارج الوطن. بل بالإمكان القول إنّه يتناسب كذلك مع الحالة الفلسطينيّة في فلسطين التاريخيّة. فكما أوضح مالكوم إكس، تتطلّب حالة عبد المنزل شرطَيْن أساسيَّيْن: وجود علاقة واضحة بين السيّد والعبد، أي بين المستعمِر والمستعمَر، ووجود تمايز بين عبد المنزل وعبد الحقل في وعي العبيد أنفسهم. هذان الشرطان يتوافران منذ عام 1967، بعد احتلال الضفّة الغربيّة وقِطاع غزّة ورفع الحكم العسكريّ عن فلسطينيّي الـ48. في هذا الصدد، في الإمكان النظر إلى فلسطينيّي الداخل باعتبارهم أقرب إلى "فلسطينيّي المنزل" الذين "يسكنون مع سيّدهم"، في حين يُنظَر إلى سكّان الضفّة وغزّة على أنّهم "فلسطينيّو الحقل" الواقعون خارج هذه الجدران.

ويشكّل التفاوت في معاملة إسرائيل لفلسطينيّي الـ48 وفلسطينيّي الـ67 الأساسَ لتطبيق مقارَبة فلسطينيّ المنزل/ فلسطينيّ الحقل. ويجدر التأكيد ثانيةً أنّ هذه المقارَبة تُستخدم هنا بوصفها عدسة تحليليّة مشروطة بالسياق، لا بوصفها تصنيفًا جوهريًّا أو ثابتًا لهُويّة الفلسطينيّين في الداخل. الهدف هو الإضاءةُ على أنماط سلوكيّة ممكنة في ظروف استعماريّة معيَّنة، لا اختزالُ التجربة الفلسطينيّة بهذا الوصف.

في هذا الإطار، يمكن النظر إلى قسم من فلسطينيّي الـ48 بوصفهم أقرب إلى "فلسطينيّي المنزل"؛ فهُمْ يعيشون داخل "جدران" قد تكون جدران المواطَنة الإسرائيليّة أو الجدران الفعليّة مثل جدار الفصل العنصريّ والحدود مع مصر والأردن وغزّة، أو في قبو أو علّيّة، كما حال القرى والبلدات العربيّة في الداخل، أو حتّى الحارات العربيّة (الأشبه بالچيتوهات) في المدن الفلسطينيّة التاريخيّة. وكما يحتمي "عبد المنزل" بجدران سيّده من الحَرّ والعمل الشاقّ، يحتمي فلسطينيّو الداخل بجدران المواطَنة، ظانّين أنّها قد توفّر لهم قَدْرًا من الحماية من بطش

السيّد. بعضهم يتهافتون على التشبُّه بالمستعمِر في اللغة والسلوك، بل كذلك ينظرون باستعلاء إلى "عبيد الحقل" أي فلسطينيّي الضفّة وغزّة والقدس، الذين يواجهون البطش المباشر.

هذا البعد يتجلّى أيضًا في المجال النفسيّ كما تناوله فانون. فقد أشار إلى أنّ الاستعمار يُستَدخَل عبْر اللغة، وأنّ المحتلّ المستعمَر يثبت انتماءه للمستعمِر عبْر استخدامها. في الداخل الفلسطينيّ، يشكّل إتقان العبريّة عاملًا أساسيًّا للتقدُّم المهنيّ، بل للبقاء الجسديّ؛ إذ قد يتعرّض من يتحدّث العربيّة علنًا لاعتداءات عنصريّة. ليس من المستغرَب أنّ 46% من فلسطينيّي الـ48 قالوا إنّهم لا يشعرون بالراحة باستخدام العربيّة في الأماكن العامّة (المعهد الإسرائيليّ للديمقراطيّة، 2023ب). بَيْدَ أنّ اللغة هنا ليست أداة بقاء فحسْب، بل قد تصبح أحيانًا علامة على استدخال المعايير الاستعماريّة كذلك: من اللافتات التجاريّة إلى المحادثات اليوميّة حتّى الخدمة العسكريّة. وعلى هذا النحو ينعكس تحليل فانون أنّ اللغة تُنتِج هرميّة جديدة، إذ يُعتبَر المتحدّث المتقِن "أكثر تحضُّرًا" بكونه أكثر قربًا إلى المستعمِر.

ثمّة بُعدٌ آخَر لتذويت الانقسام بالإمكان رؤيته في العلاقات الاقتصاديّة. وَفقًا لبحث مدى الكرمل، عندما يُسأل فلسطينيّو الـ48 عن شعورهم عند زيارتهم الضفّة للقيام بجولة مشتريات، الكثير منهم يؤكّدون على الفصل والتقسيم "إحنا عرب الـ48" مقابل "هم أهل الضفّة" (هوّاري، 2023). هذا التقسيم يَظهر كذلك في التعامل مع طلبة من الضفّة في مدارس عربيّة في الـ48 (أبو أسعد، 2023)، والعلاقات الزوجيّة مع نساء من الضفّة أزواجُهنّ من أراضي الـ48 (ظاهر-ناشف وهوّاري، 2023). وفي استطلاع أجراه مركز مدى الكرمل عام 2023 حول العلاقات في طرفَي الخطّ الأخضر، يتّضح مجدَّدًا أنّ أساسها هو الشعور بالحذر، وأنّها تركّز على التعاون في مجالات اقتصاديّة وثقافيّة وسياحيّة، وعلى نحو أقلّ في المجال السياسيّ (محاجنة، 2023).

يتّضح البعد الآخر للتمايز من خلال ما تمنحه المواطَنة، "المواطَنة الاستعماريّة الاستيطانيّة"، التي تغيّرت معالمها عبْر أربع مراحل تبعًا للتحوُّلات الجيوسياسيّة الإسرائيليّة (Rouhana & Sabbagh-Khoury, 2014). وفي إطار هذه الورقة، تُفْهَم المواطَنة على أنّها جزء من "الفتات" الذي توزّعه إسرائيل لفلسطينيّي الـ48.

أمّا التفاوت بين فلسطينيّي الـ48 وفلسطينيّي الـ67 من حيث المعامَلة، فهو يتجلّى في عددٍ من الممارسات اليوميّة: من القتل والاستيطان والتهجير الذي يتركّز في الضفّة وغزّة، إلى الفوارق في حرّيّة الحركة والوضع الاقتصاديّ بينهم وبين الإسرائيليّين اليهود، وفي مستوى العنف المباشر ضدّهم. وهذه الفوارق ليست عرَضًا جانبيًّا، بل هي جوهر في إدارة الاستعمار. وقد نجحت إسرائيل في ترسيخها نفسيًّا وثقافيًّا عبْر خطاب يعيد تعريف فلسطينيّي الداخل بوصفهم "عرب إسرائيل"، منفصلين عن باقي الفلسطينيّين. يتقاطع هذا مع ما طرحه فانون عن الحرب النفسيّة كجزء من السيطرة الاستعماريّة، وكذلك مع تحليلات أخرى (McPhail, 1981؛ Butler, 2009؛ هوّاري، 2023) تخصّ إنتاج الاستعمار لصورة نمطيّة يسعى المستعمَر نفسه إلى التشبُّه بها أو مطابقتها. هكذا أصبحت المواطَنة أداة ضبط وسيطرة: ليست حقًّا متساويًا، بل موقع استعماريّ هشّ، تدار قيمته بحسب مصالح إسرائيل وظروفها الجيوسياسيّة.

هبّة الكرامة 2021، والسابع من أكتوبر 2023

كيف تساعد مقارَبة "فلسطينيّي المنزل/ فلسطينيّي الحقل" في تفسير ردّ فعل فلسطينيّي الداخل تجاه ما يحدث في حرب الإبادة في غزّة؟ للإجابة عن هذا السؤال، أقترح مقارنة ردود الفعل في أعقاب الحرب على غزّة مقابل ما سبقها خلال أحداث الشيخ جرّاح والعدوان على غزّة في أيّار 2021، والتي عُرِفت بأحداث هبّة الكرامة.

تُعَدّ هبّة الكرامة من أهمّ لحظات الشعب الفلسطينيّ منذ هبّة الأقصى عام 2000، إذ جسّدت مثالًا مهمًّا على أهميّتها في الوحدة النضاليّة للشعب الفلسطينيّ في مختلِف مواقعه في فلسطين التاريخيّة، على الرغم من التشرذم والتجزئة التي فُرِضت عليه. ففي تلك اللحظة، كان تعامُلُ إسرائيل مع فلسطينيّي الـ48 شبيهًا بتعاملها مع فلسطينيّي الضفّة والقدس المحتلّة (عنبتاوي، 2024). فقد وُجِد فلسطينيّو الـ48 في مواجهة مباشرة مع مؤسَّسات الدولة دعمًا لأهل القدس والشيخ جرّاح الذين يعيشون في ظلّ سياسات التهجير والاقتلاع. كذلك يعيش سكّان المدن الساحليّة اللدّ والرملة وعكّا ويافا الذين يعانون من نفس السياسات والممارسات من قِبل مؤسَّسات الدولة والأنظمة الاستيطانيّة؛ بما قلّص الفوارق بينهم وبين إخوانهم في الضفّة الغربيّة والقدس، وفتح المجال أمام اندلاع احتجاج واسع النطاق.

وَفقًا للمقارَبة المطروحة هنا، إحدى أهمّ خصائص التفرقة الاستعماريّة تكمن في التفرقة في المعاملة. فكلّما ازداد الفرق في المعاملة، سواء أكان ذاك في تحسين ظروف "فلسطينيّي المنزل" أَمْ في تدهور ظروف "فلسطينيّي الحقل"، ازدادت الفجوة وظهرت الحدود بين الطرفَيْن بوضوح أشدّ.

وأمّا الشرط الثاني الذي شدّد عليه مالكوم إكس -إلى جانب التفرقة- وهو أنّه كلّما ازداد تهديد وجود السيّد أكثر ربط "عبد المنزل" مصيره ومستقبله ووجوده بالسيّد أكثر، وكلّما كبر تهدُّد وجود السيّد أكثر زاد "عبد المنزل" في جهوده لإنقاذه.

من هذا المنطلق، بالإمكان قراءة السابع من أكتوبر 2023 بوصفه لحظة صادمة تاريخيًّا: إسرائيل تعرّضت لهجوم غير مسبوق منذ 50 عامًا (أي منذ حرب عام 1973). فقد باغتتها الفصائل الفلسطينيّة من قِطاع غزّة، المحاصَر منذ أكثر من ستّ عشرة (16) سنة. لم تكن الصدمة من نصيب "السيّد" وحده، بل طالت "فلسطينيّ المنزل" كذلك. فبحسب المقارَبة هنا، كلّما كان التهديد الوجوديّ على إسرائيل أكبر، ازداد الهلع لدى جزء من فلسطينيّي الـ48، وانطلقت غريزة البقاء. وكما رُفِض في رواية "كوخ العمّ توم" الهربُ خشيةً من المجهول، لدى الكثيرين من فلسطينيّي الـ48 ثمّة خشية من الحياة بعد احتراق بيت السيّد، فقد يسعَوْن إلى إطفاء النيران حفاظًا على "البيت الذي يسكنونه". في هذه الحالة، لدى البعض ربّما كان الصمت وعدم المشاركة في الاحتجاج أشبه بإسهام غير مباشر في عمليّة "إطفاء الحريق". هذا ما قد يُستشَفّ من خطابات العديد من القيادات، عندما حثّت على ضبط النفس وعدم التظاهر، وافتخرت بالانضباط والانصياع (زعبي، 2025).

بالإضافة إلى هذا، أرى أنّ حجم الكارثة والإبادة التي يتعرّض لها الفلسطينيّون في غزّة والضفّة كان سببًا إضافيًّا يفسّر ردّ فعلِ فلسطينيّي الـ48. هذه الـمَشاهد تُولِّد لديهم مقارنة مباشرة بين أوضاعهم وأوضاع باقي الفلسطينيّين، ولا سيّما الفلسطينيّين الذين في غزّة، فتجعل الفُتات الذي تمنحه إسرائيل يبدو أكثر قيمة. هنا يصبح ما وصفته خوري بارتفاع "سعر الغضب" ملموسًا؛ فشراسة السيّد وعنفه تزداد بلا حدود، وفي المقابل ترتفع قيمة الفُتات (المواطَنة وميزاتها) في أعين المستعمَرين. الخوف لا يكون من القمع فحسْب، بل كذلك بخسارة "الامتيازات" القليلة التي يحصلون عليها، والتي تغيّرت قيمتها فجأة في فترة زمنيّة قصيرة جدًّا. وقد انعكس ذلك عمليًّا في مظاهر الحرب من خلال منع التعبير، والملاحَقات، والاعتقال الإداريّ، وهو ما جعل مكتسبات المواطَنة نفسها تحت المساءلة.

بعبارة أخرى، علْمًا أنّ الطرفَيْن خاضعان للسلطة نفسها، حين ينظر "عبد المنزل" إلى خارج النافذة ويرى شخصًا مثله يتعرّض للعقاب والعمل الشاقّ في الحقل، يبدأ بتقدير الفُتات الذي لديه. بِذا فإنّ الصمت الذي نشهده لدى فلسطينيّي الـ48 لا يعني فقدان انتمائهم، بل إنّه -على العكس من ذلك- يُعَدّ دلالة على فلسطينيّتهم؛ إذ هم يرَوْن أنفسهم في الفلسطينيّين الذين في غزّة ويشاهدون بأعينهم الإبادة التي يتعرّضون لها.

تتّضح قوّة هذه المقارَبة أكثر عند المقارنة مع سلوك فلسطينيّي الـ48 خلال هبّة الكرامة. ففي أيّار 2021، كانت الفوارق في المعاملة بين أجزاء الشعب الفلسطينيّ أقلّ بكثير. وكان تعامل إسرائيل مع فلسطينيّي الـ48 أقرب إلى تعاملها مع فلسطينيّي الضفّة والقدس: من قضايا السكن المتمثّلة بالتهجير ومصادرة البيوت أو هدم المساكن، إلى نصب الحواجز من الباطون المسلّح التي أَغلَقت مداخل البلدات الفلسطينيّة في مناطق الـ48. علاوةً على هذا، التهديد للمنزل وللسيّد لم يكونا كبيرَيْن؛ فالـمَطالب آنذاك تمثّلت في وقف تهجير عدد من البيوت في حيّ الشيخ جرّاح، ولم تقع عمليّة عسكريّة مباشرة تهدِّد الدولة. لذا، بحسب المقارَبة، انعكاس التفرقة كان أقلّ حدّة، وهو ما أتاح مِساحة أكبر للاحتجاج والمشارَكة.

أمّا بعد السابع من أكتوبر، فقد تضاعف هَوْل القتل والإبادة والدمار الإسرائيليّ في غزّة، ممّا زاد من خوف فلسطينيّي الـ48 أكثر وأكثر، وهو ما يفسّر -في تقديري- الامتناعَ عن التظاهر أو أيّ مظاهر احتجاج أخرى. فكلّما ازدادت المقارنة بين الفروق، ازداد الشعور بالخوف والتمسُّك بالسلطة. يمكن رصد هذه النتائج باستطلاعات الرأي: فبعد السابع من أكتوبر 2023 مباشرة، ظهر ارتفاع ملحوظ في أوساط فلسطينيّي الـ48 الذين يشعرون بأنّهم جزء من دولة إسرائيل ومشاكلها (المعهد الإسرائيليّ للديمقراطيّة، 2023أ، 2023ب)؛ إذ ارتفعت النسبة من 22 % في حَزيران 2023 لتبلغ 70 % في نهاية تشرين الأوّل من العام نفسه. وفي استطلاع قام به مركز مدى الكرمل في آذار 2024، ظهر أنّ 39 % من المستطلَعين من فلسطينيّي الـ48 يرَوْن أنّ الحلّ الأكثر ملاءَمةً لهم هو الاندماج السياسيّ الكامل والمشارَكة في التحالف الحكوميّ.[6] قد يَكْمُن تفسير الارتفاع الملحوظ لديهم، بشأن الإحساس بكونهم جزءًا من دولة إسرائيل، في التهديد الكبير على وجود إسرائيل وتوقُّع ردّة الفعل العنيفة ضدّهم من قِبل إسرائيل ردًّا على هجوم حماس.

6. انظر ورقة امطانس شحادة في هذا الكتاب. ص.ص. 27 - 49.

في توافر هذَيْن الشرطَيْن، تفاوُتُ المعاملةِ وشدّةُ التهديد، يبرز جانب آخَر من الظاهرة يتمثل في العلاقة العكسيّة القائمة في الصراع التحرُّريّ. فعندما يثور "عبيد الحقل" ويهاجمون بيت السيّد، تكون النتيجة المتوقَّعة هي حرق البيت، الذي يمثّل في نظرهم القمع والظلم الذي عاشوه. بَيْدَ أنّ وجود "عبيد المنزل" داخل البيت يجعل التحرُّر معضلة مزدوجة؛ وذلك أنّ تحرير عبد المنزل من قمعه يتطلّب منه التخلّي عن الفُتات الذي يملكه، على المدى غير البعيد، بينما تبدو الحرّيّة المطْلَقة مجهولة النتائج. وقد خبروا يقينًا العقابَ الذي يترتّب عليه الغضب أو محاولة الهرب. لذا يتمسّك عبد المنزل بالفُتات الذي لديه، ويرى في "النعم" التي تحلّ على منزل سيّده مَصْدرًا لمكسب شخصيّ له يضاف إلى الهدوء الذي يعمّ البيت ينعكس عليه، والجدران التي تقمعه تتحوّل في وعيه إلى وسيلة حماية.

إجمال

قدّمت هذه الورقة إطارًا لمحاولة فَهْم صمت فلسطينيّي الـ48 تجاه الإبادة في غزّة، مقارَنةً بتصرُّفهم في هبّة الكرامة قبل سنتين. سعت الورقة في البداية إلى استعراض التفسيرات المطروحة، إسرائيليًّا وفلسطينيًّا لظاهرة هذا الصمت، ثمّ انتقلت إلى تحليل الحالة نفسها بوصفها مثالًا على العنصريّة الاستعماريّة كبنْية اجتماعيّة تُنتِج تمايُزات داخل الجماعة المستعمَرة؛ إذ في الغالب يتبنّى المستعمَر تصنيفات المستعمِر ويعيد انتهاجها.

على هذا الأساس، طوّرت الورقة إطارًا نظريًّا مستنِدًا إلى أعمال فانون ومالكوم إكس، وبأعقاب لـمى خوري، يقوم على التعبير الاستعاريّ عبيد المنزل/ عبيد الحقل. ووَفق هذا الإطار، يمكن النظر إلى فلسطينيّي الـ48 بوصفهم "فلسطينيّي المنزل"، وإلى فلسطينيّي المناطق المحتلّة عام 1967 بوصفهم "فلسطينيّي الحقل"؛ إذ كلّما تعرّض بيت السيّد للتهديد من قِبل "عبيد الحقل" ازداد "عبيد المنزل" تمسُّكًا به، خوفًا على الفُتات الذي ينالونه من وجوده. بِذا، يرى الإطار أنّ الفوارق في المعاملة (الإبادة في غزّة) والتهديدات الوجوديّة التي واجهتها إسرائيل بعد السابع من أكتوبر 2023 رفعت من قيمة "الفُتات" (المواطَنة) وامتيازاتها، في عيون جزء من فلسطينيّي الـ48، فكان الصمت هو الإجابة لحماية السيّد. بل ثمّة ما هو أكثر من ذلك، إذ ترى هذه المقارَبة صمت فلسطينيّي الـ48 تعبيرًا عن

فلسطينيّتهم نفسها، وذلك أنّه لا يمكن فَهْمه إلّا في ضوء المقارنة مع ما يواجهه إخوتهم في غزّة والضفّة.

بهذا الطرح، لم تكتفِ الورقة بطرح السؤال: لماذا لم يتحرّك فلسطينيّو الداخل ضدّ الحرب كما فعلوا في هبّة الكرامة؟ بل سعت إلى تقديم تفسير إضافيّ يضيء على ديناميكيّات أعمق تنتجها البنْية الاستعماريّة.

المراجع

أبو أسعد، إسلام. (2023). "تصوّرات وتطبيقات التربويّين لسياسات التقييم والاحتواء تجاه التلاميذ الفلسطينيّين من الضفّة الغربيّة في المدارس العربيّة في إسرائيل". لدى: مصطفى، مهنّد (محرّر). **العلاقات بين الفلسطينيّين في فلسطين التاريخيّة: ديناميّات اجتماعيّة واقتصاديّة وسياسيّة**. حيفا: مدى الكرمل. ص 88 - 104.

أبو لبن، ندين. (2024، 01 كانون الثاني). تحمون بعضكم بعضًا؟ فقط إذا كنتم يهود: "يجب أن نستيقظ قبل أن يهزمنا المتطرّفون". **هآرتس**. [بالعبريّة]
https://tinyurl.com/bdevcvmt

أرلوزوروف، ميراف. (2023، 27 تشرين الأوّل). "لا أمل لحارس الأسوار 2": الخوف في أعلى مستوياته، لكن عرب إسرائيل محافظون على انضباط النفس. **هآرتس**. [بالعبريّة]
https://tinyurl.com/2erz4w3s

پاپـه، إيلان. (2007). **التطهير العرقيّ في فلسطين**. بيروت: مؤسّسة الدراسات الفلسطينيّة.

خنفير، هاجر. (2024، 22 تشرين الأوّل). نقد الاستشراق من منظورٍ جندريّ: ليلى أبو لغد نموذجًا. **تكوين**.
https://tinyurl.com/zz5ftx2r

زعبي، حنين. (2025). "الالتحام والانفصال في علاقة الداخل مع لحظة غزة: عن أي تَوقٍ وعن أي طَوقٍ نكشف؟". لدى: زعبي، همّت؛ وهوّاري، عرين (محرّرتان). **فلسطينيّو 48 وحرب الإبادة على غزّة: مساءلة الصمت والفاعليّة السياسيّة**. حيفا: مدى الكرمل. ص.ص. 135 - 174.

زعبي، حنين. (2024أ، 3 آذار). الداخل ما بعد السابع من أكتوبر: الصمت إزاء حالة خارج السياسة. **عرب48**.
https://l1nq.com/yLRjB

زعبي، حنين. (2024ب، 18 آذار). الداخل ما بعد السابع من أكتوبر: شراكة في ظلّ الإبادة ... غزّة كضرر جانبيّ. **عرب48**.
https://l1nq.com/h06Fd

زِنْـچر، عيران. (2023، 7 تشرين الثاني). مخاوف عرب إسرائيل. **كان 11**. [بالعبريّة]
https://www.kan.org.il/content/kan-news/opinions/599008

شحادة، امطانس. (2025). "مواقف المجتمع العربيّ تجاه الحرب على غزّة وإسقاطاتها السياسيّة: تحليل استطلاع رأي عامّ- مدى الكرمل". لدى: زعبي، همّت؛ وهوّاري، عرين (محرّرتان). **فلسطينيّو 48 وحرب الإبادة على غزّة: مساءلة الصمت والفاعليّة السياسيّة**. حيفا: مدى الكرمل. ص.ص. 27 - 50.

شحادة، امطانس. (2024، حزيران). مواطَنة هشّة: العنصريّة والقمع تجاه المواطنين العرب في إسرائيل إبّان الحرب على غزّة. **مدى الكرمل**.
https://tinyurl.com/yhy4pvun

صبّاغ، زهير. (1990). "مرحلة الصدمة والنضال ضدّ الحكم العسكريّ 1948 - 1967". لدى: جبريل، محمّد؛ ونزّال، واصف (محرّران). **فلسطينيّو 48 نضال مستمرّ 1948 - 1988**. القدس: مركز الزهراء. ص 21 - 76.

ظاهر-ناشف، سهاد وهوّاري، عرين. (2023). ""رحلة جبليّة، رحلة صعبة": التجربة المعيشة للنساء الفلسطينيّات من المناطق المحتلّة عام 1967 المتزوّجات والمقيمات داخل "الخطّ الأخضر"". لدى: مصطفى، مهنّد (محرّر). **العلاقات بين الفلسطينيّين في فلسطين التاريخيّة: ديناميّات اجتماعيّة واقتصاديّة وسياسيّة**. حيفا: مدى الكرمل. ص 104- 134.

عنبتاوي، خالد. (2024). **هبّة في حالة عتبة: هبّة الكرامة (أيّار 2021) والفعل الانتفاضيّ-الشعبيّ لدى فلسطينيّي 1948 (مقاربة سوسيولوجيّة)**. حيفا: مدى الكرمل.

قعدان، محمد. (2025، 07 شباط). جذور سياسة التجويع الصهيونية: ملامح من فترة الحكم العسكري الأولى. **رُمّان**.
https://rommanmag.com/archives/34853

كَلْكَلِسْت. (2023، 16 تشرين الثاني). الحرب هزّت المجتمع العربيّ. حماس ذبحتنا، والآن إسرائيل تلاحقنا سياسيًّا. **كَلْكَلِسْت**. [بالعبريّة]
https://tinyurl.com/mv477rac

محاجنة، سامي. (2023). "علاقات على الأطراف: قراءة في استطلاع رأي حول طبيعة العلاقات في المجتمع الفلسطينيّ على طرفَي الخطّ الأخضر". لدى: مصطفى، مهنّد (محرّر). **العلاقات بين الفلسطينيّين في فلسطين التاريخيّة: ديناميّات اجتماعيّة واقتصاديّة وسياسيّة**. حيفا: مدى الكرمل. ص 20- 41.

مركز أمان. (2023). العنف والجريمة في المجتمع العربي، التقرير السنوي لمركز "أمان"- المركز العربي لمجتمع آمن للعام 2023. **مركز أمان**.
https://h1.nu/1jzt5

المعهد الإسرائيليّ للديمقراطيّة. (2023أ، 10 تشرين الثاني). استطلاع رأي سريع حول "السيوف الحديديّة": رقم قياسيّ للعشرين سنة الأخيرة في شعور الانتماء للدولة لدى اليهود وكذلك لدى العرب. **المعهد الإسرائيليّ للديمقراطيّة**. [بالعبريّة]
https://www.idi.org.il/articles/51391

المعهد الإسرائيليّ للديمقراطيّة. (2023ب، 25 كانون الأوّل). استطلاع آراء المجتمع العربيّ حول حرب "السيوف الحديديّة": ثُلثا المواطنين تقريبًا يشعرون أنّهم جزء من الدولة ومشاكلها. **المعهد الإسرائيليّ للديمقراطيّة**. [بالعبريّة]
https://www.idi.org.il/articles/51968

مواسي، علي. (شتاء 2024). مشكِّلات الكُمون: فلسطينيّو 1948 والحرب الإسرائيليّة على قِطاع غزّة. **مجلّة الدراسات الفلسطينيّة**، 137. ص 126- 150.
https://www.palestine-studies.org/ar/node/1654951

هوّاري، عرين. (2023). "بين شقَّيْن: شعب يمارس وحدته وانشطاره". لدى: مصطفى، مهنّد (محرّر). **العلاقات بين الفلسطينيّين في فلسطين التاريخيّة: ديناميّات اجتماعيّة واقتصاديّة وسياسيّة**. حيفا: مدى الكرمل. ص 42- 68.

Ahmed, L. (2011). **Quiet Revolution: The Veil's Resurge**. Yale University Press.

Beecher-Stowe, Harriet. (2011). **Uncle Tom's cabin**. London: Harper press.

Berger, Elizabeth; & Samah, Jabr. (2021). "FANON AND PALESTINE: THE STRUGGLE FOR JUSTICE AS THE CORE OF MENTAL HEALTH". In: Nigel C., Gibson. (Ed.). **FANON TODAY Reason and Revolt of the wretched of the earth**. Canada: Daraja Press. Pp. 127- 154.

Bishara, Azmi. (2017). "Zionism and equal citizenship: Essential and incidental citizenship in the Jewish state". In: Rouaha, Nadim (ed.). **Israel and the Palestinian citizens: Ethnic privileges in the Jewish state**. Cambridge University Press. Pp. 137- 155.

Butler, J. (2009). **Frames of war: When is life grievable?.** New York, NY: Verso.

Doctors without borders. (2023, December 15). 2023 is the deadliest year on record for Palestinians in the West Bank. **Doctors without borders**. https://tinyurl.com/mrhm3jj5

Fanon, Franz. (2008). **Black Skins, White Masks**. UK: Penguin books.

Foucault, M. (1988). **Madness and civilization: A history of insanity in the age of reason**. New York, NY: Vintage Books. (Original work published 1965).

Friere, Paulo. (2005). **PEDAGOGY of the OPPRESSED**. New York/ London: Continuum.

Go, Julian. (2004). "Racism" and Colonialism: Meanings of Difference and Ruling Practices in America's Pacific Empire. **Qualitative Sociology**, 27 (1). Pp. 35- 58.

Khouri, Lama Z. (2018). Through Trump's Looking Glass into Alice's Wonderland: On Meeting the House Palestinian. **Psychoanalytic Perspectives**, 15 (3). Pp. 275- 299.

McPhail, T. (1981). **Electronic colonialism: The future of international broadcasting and communication**. Newbury Park, CA: Sage.

Meriam-Webster. [n.d.]. Uncle Tom. **Meriam-Webster**. https://www.merriam-webster.com/dictionary/Uncle%20Tom

Ross, Robert. (1982). REFLECTIONS ON A THEME. In: Robert, Ross (Ed.). **Racism and Colonialism Essays on Ideology and Social Structure**. Leiden: MARTINUS NIJHOFF. Pp. 1- 10.

Rouhana, Nadim, & Sabbagh-Khoury, Areej. (2014). Settler-colonial citizenship: conceptualizing the relationship between Israel and its Palestinian citizens. **Settler Colonial Studies**, 5 (3). Pp. 205- 225. https://www.tandfonline.com/doi/full/10.1080/2201473X.2014.947671

X, Malcom. (1963, January 23). The Race Problem. **Columbia University**. https://ccnmtl.columbia.edu/projects/mmt/mxp/speeches/mxt17.html

تعتمد معظم فصول هذا الكتاب على الأوراق التي قُدِّمت خلال مؤتمر مدى الكرمل السنويّ عام 2024، الذي عُقِد بعد مرور بضعة أشهر على بداية حرب الإبادة على قِطاع غزّة، وجاء تحت عنوان "فلسطينيّو 48 والحرب على غزّة". جاء المؤتمر في لحظة ترسّخَ فيها الخوف وساد فيها الصمت وبرز الفعل السياسيّ من خلال غياب هذا الفعل! كذلك كشفت هذه اللحظة عن اهتزاز مفاهيم كانت تُعتبَر ضمنًا قواعدَ ناظمةً للعلاقة مع الدولة، وفي مقدّمتها معنى المواطَنة وحدود شرعيّة الفعل السياسيّ.

تسعى فصول هذا الكتاب إلى تقديم تشخيص لأثر الحرب على غزّة على فلسطينيّي الـ48 وعلى فاعليّتهم السياسيّة أو غيابها. وهو محاولة لوصف الانكفاء والانخراط لا كموقفَيْن متقابلَيْن، بل كساحتَيْن متداخلتَيْن في صراع الوعي والسياسة: بين الخوف والغضب، بين الصمت والرغبة في الفعل، بين إعادةِ إنتاج شروط الإخضاع والبحثِ عن أفق سياسيّ جديد. إنّ أوراق هذا الكتاب، التي تتنوّع بين التحليل السياسيّ والنفسيّ والثقافيّ والفلسفيّ، تنطلق من وعي أنّ غزّة هي المركز الذي يعيد ترتيب أسئلة الفلسطينيّين في الداخل عن الذات والموقع والمعنى السياسيّ، كما تفرض على العالم كافّة، وعلى أحراره ومثقّفيه النقديّين تحديدًا، إعادةَ النظر في قناعاتهم ومفاهيمهم وفي المرجعيّات التي ينطلقون منها والقوى التي يعوّلون عليها.

The ’48 Palestinians and the Genocidal War on Gaza: A Critical Inquiry into Silence and Political Agency.

Edited by: Himmat Zoubi and Areen Hawari

ISBN: 978-965-7308-33-2

مدى الكرمل
المركز العربي للدراسات الاجتماعية التطبيقية